

اشكالية التغيير في فلسفة ابن خلدون الاجتماعية.

د. بن سعيد محمد.

قسم العلوم الاجتماعية، المركز الجامعي نور البشير- البيض، الجزائر.
البريد الإلكتروني: bensaidmed67@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019 / 01 / 14؛ تاريخ القبول: 2019 / 01 / 29.

الملخص:

إن التغيير - كظاهرة اجتماعية - شديد الارتباط بالحياة السياسية، فهو من جهة أولى، يعد من بين أهم مسوغات قيام الدولة واستمرارها الفاعل، ومن جهة ثانية، يكون ظاهرة واضحة من أهم ظواهر سقوطها وانهارها. وتاريخ المجتمعات الانسانية حافل بتجارب ومحاولات للتغيير، وان اختلفت الدوافع والأسباب. ويظل دائما الوعي بتفاعل أبعاد الزمان، الماضي والحاضر وحتى المستقبل، هو الأصل و القاعدة في كل تغيير ممكن، فتحليل الماضي يتيح المجال للولوج الى الحاضر وفهمه، ومن ثم تكون الاستفادة كبيرة من هذا الماضي حيث يهيئ الارضية الصلبة للتغيير من خلال تقديم آليات وأساليب ناجعة، بل وقد يضع أمام الباحث أو المفكر أو المؤرخ "مفاتيح رئيسية" لفهم الحاضر.

إن هذا التأويل هو عين ما قام به المفكر العربي الاسلامي الشهير عبد الرحمن بن خلدون (1332م - 1406م)، الذي غاص في أعماق المجتمع العربي الاسلامي وهو يشهد انقباضا وانحطاطا بارزين، فاكشف أن في الماضي دروسا وعبر، وأن التغيير قدر محتوم، فالمجتمع الانساني لا يمكن أن يصير إلى الثبات والسكون، وهو سائر إلى التغيير لا محاله، مثله في ذلك، مثل عمر الفرد الذي

يمر بمراحل من الولادة إلى الوفاة ، ويخبرنا في "المقدمة" أن للدولة أعمار طبيعية كما للأشخاص.

لذلك، فإن الاشكالية المركزية التي تتمحور حولها هذه المساهمة المتواضعة ، تتجه إلى التساؤل: ما هي محددات "نظرية" ابن خلدون في دراسته السوسيولوجية لحتمية التغيير؟

الكلمات المفتاحية: التغيير ؛ الدولة ؛ الاجتماع الانساني؛ المجتمع العربي الاسلامي؛ الخلدونية.

Abstract:

The change -as a social phenomenon- very closely linked to the political life, it is on the one side, and among the most important the justification for the establishment of the state and its effective continuation, on the other side, and it is an obvious phenomenon of the most important phenomena fall and collapse. The history of human societies full of experiences and attempts to change, despite the difference in motives and reasons of the past, present and even future, is the origin and basis of every possible change. Hence, the analysis of the past allows access to the present and its understanding, then it is a great benefit from this past, which prepares the ground for solid change by providing the mechanisms and methods of effective, indeed, the researcher or thinker and the historian may find "the principle keys" to understand the present.

This interpretation is exactly what the famous Arab Islamic thinker Abdul Rahman Ibn Khaldun (1332-1406) has done, which goes deeply in Islamic Arab society that it is witnessing an obvious degeneration. Thus, he discovered that from the past we learn lessons and morals. The change is inevitable destiny, the human society cannot become stable and fixed it is inevitably going to change such as: the age of the individual who is going through stages from birth to death. He stated in his book «Introduction» that the state has a normal ages as for people. Therefore, the central dilemma of this article is centered on the issue: What are the determinants of "theory" Ibn Khaldun in his sociological study of the imperative change?

Keywords: The change; the state; the human society; Islamic Arab society; Khaldunisme.

1 -الواقع العربي الراهن: المحددات والتجليات:

إن الغرض من تقديمنا لهذا المشهد ، مع وعينا بالقفز على بعض الوقائع والأحداث ، وعدم الاحاطة بكل تفاصيل تجاعيده ، هو التنبية(ولربّما ، التذكير فقط)، بأن الإنسان العربي الراهن ، غريب عن هذا العصر ، تبدو فرصه فيه محدودة ، فهو لم يتخط عصر الإيدولوجيا ، بينما العصر عصر تكنولوجيا ، إنه لا يزال في عصر الأمن القطري الهلامي ، بينما العصر عصر الأمن التكاملي الشمولي ، ومازال في عصر الأمية والتخلف ، بينما العصر عصر العلم والتقنية النوعية ، عصر حقوق الإنسان والديمقراطية ،... واختصارا ، فهو يقبع خارج العصر ، عصر العولمة ، عصر يقول عنه الباحث والمفكر العربي سمير أمين : " كل شيء يجري فيه وكأن العالم تحكمه دكتاتورية متشددة لا تسمح ولا تستسيغ حتى حرية التعبير. فالولايات المتحدة الأمريكية هي وحدها القائمة(الساهرة)على إدارة شؤون العالم ، فهي في كل مكان وطرف في كل شيء"(سمير ، أ. 1993 : 224). إنه عصر كما يضيف أحدهم: "يسير فيه كل شيء وكأن أمريكا تملك تفويضا من كافة دول العالم ، يعطي لها وحدها الحق في التوجيه ، وإدارة شؤون المعمورة دون شريك"(قتان ، م. 1994 : 75).

في ظل هذا العصر يقبع المجتمع العربي بلا عنوان ، ليجد نفسه مكبلا بظواهر التخلف التي من أهمها :

- الفقر: لا نخشى المبالغة إذا قلنا أنه يوجد فارق كبير ، وفجوة عميقة بين الأغنياء في الوطن العربي ، بل وداخل هذا الوطن توجد أقطار غنية وأخرى فقيرة. وهذا في الوقت الذي يزخر فيه بثروات . كما هو معلوم . طبيعية هائلة . - . التبعية: تراجع "مشاريع الوحدة العربية" ، والاستقلال السياسي ، والتنمية المحلية على كافة المستويات وانتكاس فكر والثقافة...كلها حقائق تاريخية وموضوعية تؤكد لنا أن المجتمع

العربي لا يسيطر على موارده ولا يملك مصيره، انه يعاني فجوة حضارية تفصله عن "المجتمعات" المتقدمة.

■ السلطوية: إن الأنظمة السياسية العربية القائمة سلطوية حتى النخاع، إن الحكام يسيطرون ويتسلطون، والشعوب تطيع. شعوب لا تشارك في صناعة مصائرها أو تحديد خطط لمستقبلها. في ظل هذا الواقع السياسي المفروض، يتحول الإنسان العربي إلى "كائن عاجز مغلوب على أمره لا تشغله سوى لقمة العيش، فيعيش دوماً على هامش الحياة دون مقدرة على ممارسة قدراته الحقيقية في الخلق والإبداع" (بركات، ج. 1993: 21). وحتى تبقى السلطوية يلجأ الحكام إلى تنمية التجمعات الموالية، وتكريس الايديولوجيات وتسخير الأشخاص الرموز "جماعة الضغط" لحشد العامة، كما يلجؤون أيضاً إلى الاعتماد على "الخبرات الأمنية" ومساعدات "الدول الصديقة"، في المجالات السياسية والعسكرية...

هذه هي أهم ملامح الواقع العربي الراهن، واقع مجتمع يعاني الأزمة بكل معانيها ودلالاتها وأبعادها، أزمة على مستوى الفرد والمجتمع، فلا يزال الفرد يعاني حصار الدولة والدين والمؤسسات والتقاليد والقوانين... ولا يزال المجتمع كذلك يعاني التفكك والانشطارات الاجتماعية والسياسية والخلخلة في القيم والنزعة الفئوية والطبقية، وأزمة هوية وأزمة شرعية بوجه عام، إلخ....

في نظري، تشريح هذه الأزمة وتشخيصها يجعلنا نصطدم بالحقائق التالية:

➤ هناك قصور تاريخي في فهمنا وممارستنا للإسلام، فبعد إجهاض التجربة الشورية وتحويل الخلافة إلى "ملك عضوض" (أو عضود)، وتسخير الدين لخدمة السلطة، كل ذلك أدى إلى تأجيل اليقظة العربية السلامية.

◀ ترسيخ التخلف بسبب الاستبداد والظلم والفساد ، وهي عوامل أفضت إلى اندلاع حروب أهلية ، وانتفاضات لا تزال ترسم مشهد الحياة في العالمين العربي والإسلامي المعاصرين. كما أن الحروب التي شنها أعداء الأمة أنهكتها ، واستنزفتها وحرمتها من الاستقرار الذي بدونه لا يكون توسيع للعمران أو تراكم للخبرات أو تشجيع لمشروعات التنمية ، كل ذلك لم يورث سوى "تثقيل" المديونية.

◀ انتشار الجهل والأمية والتهميش ، وتفشي الأمراض المهلكة والجفاف والتصحر ، وسيطرة الأجانب على التجارة الخارجية ، واستفحال الاضطرابات الطائفية المذهبية والإثنية ، كل ذلك يقوض ولا يبني ، ويعطل حوافز الإبداع عند الأفراد.

◀ الاستكانة والركود وشل الإرادة ، والإحباط واليأس والقدرية والتفتت... كل ذلك جعل الأمة العربية ، موضوعا يمارس عليه وفيه الغرب (+إسرائيل) ، شتى ضروب التسلط والتوسع ، والاستغلال والامتهان ، والهيمنة....

هناك إذن تحديات أمام الواقع والمستقبل العربيين ، منها ما هو محلي كعدم الاتفاق على مواجهة التحديات ، وعدم صياغة أهداف واحدة ، وغياب الإدارة العربية لتعزيز الجهد المشترك ، إضافة إلى الخلافات والصراعات الإقليمية ، وفقدان آليات لتفعيل العمل العربي المشترك. وكذا محاولات التهميش والإقصاء والتغيب التي تطال الأمة على المستوى الخارجي. ومنها ما هو اقتصادي: كالتخلف الشديد في الميدان العلمي والتقني . وتمركز الاقتصاد العربي حول النفط (طغيان نزعة الاستيراد والاستهلاك على حساب المنتج المحلي). وكذا فشل سياسات التكامل الاقتصادي. ومن التحديات ما هو ثقافي مثل: طبيعة التكوين الثقافي للمجتمعات العربية التي تحكم في تحديد وتشكيل جميع الهياكل الاقتصادية

السياسية والعسكرية، والفشل في عملية دمج الحداثة مع الأصالة، والعجز في تصحيح الاستجابة الثقافية لمختلف التحديات، ومنها ما هو ذو طبيعة خارجية كتحديات الكيان الإسرائيلي والعجز في التعاطي الصحيح مع مفاهيم الاحتلال والتحالف والأمن القومي ومكافحة الإرهاب، ومحاولات السيطرة وتنامي الأطماع في الثروات، علاوة على احتمالات زرع التفرقة بين البلدان العربية، وإضعاف الدور العربي على الساحة العالمية، دون تجاهل استمرار التدخل في الشؤون الداخلية على أساس سياسي، أو عرقي، أو ديني.....

وإجمالاً، يمكن القول أن أهم المحاور والقضايا الفكرية السياسية التي شغلت المفكرين في النصف الثاني من القرن العشرين وبداية القرن الحالي، هي من مثل القومية العربية"، والديمقراطية والحداثة، والدين والدولة، والإسلام والغرب، والتقدم الفكري والغزو الثقافي، والعولمة والاستعمار....

لقد فشلت مشاريع الوحدة العربية، كما تعثر مشروع الحرية العربية في هذا العصر، ولا تزال الديمقراطية "مؤجلة" بسبب الصراعات الطائفية والقبلية، وافتراق التطور الاجتماعي عن التطور الاقتصادي، وتماهي الفكر الديني المناهض لها، وعدم الإيمان بها، وقيام دولة إسرائيل، وتداعيات الصراع العربي الإسرائيلي، والاجتياح الأمريكي والغربي للعالم.....

خريطة الوطن العربي الثقافية المعاصرة، إذن، تميزها معالم، أهمها: وعي ممزق للنهضة، وحيرة في التراث بين ما يمكن أخذه وتطبيقه وبين الرفض، فالثقافة العربية السائدة هي ثقافة تراثية، ومن ثم فإن واجب الحداثة هو إعادة قراءة التراث، وإذن تبقى المشكلة قائمة وكامنة في كيفية حل المعادلة "الكيميائية" المكونة من التراث العربي والثقافة العالمية المعاصرة، والمتطلبات الثقافية المرغوبة للمجتمع العربي.

ضمن هذا الإطار، كانت إشكالية التراث والحداثة تأخذ بجماع فكر المثقفين والمفكرين والباحثين العرب والمسلمين المعاصرين، وكان أن برزت

مشاريع فكرية تنتدب نفسها لتناول هذه الإشكالية - الهم ، إشكالية : "الأصالة والمعاصرة".

2 - الحاجة إلى التغيير في تحليلات ابن خلدون:

أ - عصر ابن خلدون: التفكك والانهدام:

جسد القرن الثامن الهجري (ق14م) تقهقرا واضحا، وانحطاطا بارزا للحضارة العربية الإسلامية، على كافة المستويات والأصعدة. وبالجمل، لقد هيمنت على هذا العصر حقيقة واحدة هي: التراجع، والتفكك والانهدام.

لنترك أولا ابن خلدون، يقدم لنا تفاصيل مشهد الانحطاط الخانق لهذا القرن إذ يقول: "وأما لهذا العهد، وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة.... هذا إلى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف، الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاسنها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها.... وأوهن من سلطانها..... فخرت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن، وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب، لكن على نسبته ومقدار عمرانه. وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض، فبادر بالإجابة" (ابن خلدون، ع. 2000: 25). لقد عم الاضطراب، وسادت الفوضى كل مظاهر الحياة. لقد كان هذا العصر، كما يقول جاك بيرك، من أسوأ العصور التي عرفتتها حضارات البحر الأبيض المتوسط (الجابري، م. 1994: 20).

1 - على الصعيد السياسي: تفكك الوحدات السياسية: الدول:

عرف الغرب الإسلامي في هذا العصر، انكماش رقعة الإسلام، ففي الأندلس، أضحت دولة بني الأحمر في غرناطة كيانا مهلهلا، تقلصه وتمدده وفي حدود ضيقة جدا، الهجمات المتتالية للأسبان (حروب الاسترداد Reconquista)،

وأما في البلدان المغربية فكانت كل حواضره تشهد التآزم الواضح حيث غيرت الأوضاع سلبا بالشذوذ، فلقد انهارت دولة الموحدين في واقعة حصن العقاب عام (1212م . 609 هـ)، وقامت على أنقاضها دويلات، ستكرس هذا الانحطاط والفوضى. فلقد انفرد بالسلطة بنو حفص في تونس، وبنو عبد الواد في تلمسان، وبنو مرين في مراكش، وكانت العلاقات فيما بينها قائمة على الصراع المستمر، حيث كانت المؤامرات والتحالفات هي قمة اهتماماتهم السياسية. فالحفصيون كانوا متحالفين مع المرينيين ضد الزيانيين وما تبقى من الموحدين كانوا متحالفين مع الزيانيين ضد المرينيين، وهكذا كانت الحروب لا تهدأ إلا لتقوم، يصف محمد عابد الجابري هذا الوضع، قائلاً: "وبالجملة فقد كانت كل واحدة من هذه الدول عدوة لجاراتها المباشرة، حليفة للتي بعدها، مما جعلها تعيش في حروب لا تتقف ولا تهدأ" (الجابري، م. 1994: 22). لقد كان الصراع القوى هو الذي يهيمن على المنطقة. ولقد اتسعت دائرته عندما قامت إمارات ناشئة في حواضر المغرب الأوسط، كجاية، وقسنطينة، وبسكرة

في خضم هذه الأحداث، قُدِّر لابن خلدون أن يعيش، حيث تنقل بين هذه البلدان، ممارسا العمل السياسي، ومستمرًا في بناء طموحه السياسي، وهذا قبل أن يعتزل ذلك تماما، ويميل إلى الكتابة والتأليف. وقبل أن ينتقل إلى مصر حيث سيستقر بها ليتوفى هناك عام 406 هـ. إن عدم الاستقرار الذي ميز هذا القرن، سينتج أوضاعا اجتماعية واقتصادية وثقافية، متدهورة جدا.

2 - على الصعيد الاجتماعي: تفكك الوحدات الاجتماعية: القبائل والعصبيات:

تركيبة المجتمعات في المغرب العربي، خلال القرن 14 م قبلية، فالسكان هنا عبارة عن مجموعات من القبائل، لا تهدأ العلاقات فيما بينها إلا لتقوم. وما يميز هذه العلاقات، التحالفات والمطاحنات المستمرة، لأن الغزو والحروب كان هو الواقع المفروض. إن القبيلة ستكبر وتبقى، عندما تتمكن من دحر غيرها وصد

هجماته. وإذا ما تم لها هذا الاستقرار واتساع نفوذها، فستصبح قوة وستؤسس لنفسها ملكا وسلطة، وتقيم دولة خاصة باسمها.

إن الصراع المسلح، وظاهرة الحروب المستديرة في مجتمع المغرب العربي، قد تكون لها أسباب مختلفة لكنها في نهاية المطاف، تستهدف غاية واحدة هي المحافظة على البقاء. ولقد كانت القبائل البدوية، "الرحل" الذين لا وطن لهم " تعيش بعيدا عن سلطة الدولة، وفي أغلب الأحيان كانت التبعية لهذه السلطة، تبعية اسمية لا غير. وفي حال تسرب الضعف إلى هذه الدولة، تلجأ القبائل إلى الانقضاض على مناطقها الخصبة، وأراضيها بشكل عام. وقد تتطور أطماعها ومطامحها إلى الاستيلاء على السلطة والحكم.

والواقع، أن الاستقلال "النسبي" لهذه القبائل عن السلطة المركزية ما هو سوى علامة حقيقية على تقلص قوة الدولة التي هي في الأصل عبارة عن "قبيلة" أو فرع منها. استطاعت أن تكتسب ولاء القبائل الأخرى بقوة شكيمتها أو بتحالفها" (الجابري، م. 1994: 24).

إن هذا الوضع المبني على التحالفات مرشح للانفجار عند كل هزة، والمحافظة على الوحدة القبلية وانسجامها، متوقف على مدى قدرة الحاكم على الحفاظ على التبعية والولاء التي يفتكها من القبائل المتحالفة معه أو الخاضعة له بالقوة، وهذا يعني أن استمرار السلطة وبقاء الدولة، يتوقف على عامل مادي هام جدا، هو الثروة والأموال.

3 - من الناحية الاقتصادية:

لقد كان الغزو كان سمة العصر البارزة، ومن ثم فإن "الحصول على الأموال في هذا العصر، كان مصدره إما الغزو، وإما التجارة، لأن الزراعة لم تكن تنتج فائضا" (الجابري، م. 1994: 26)، والغزو يعتمد على قوة القبيلة، وقدرتها على المجابهة ويمكنها بالتالي، من حماية تجارتها. ولما كانت الدولة "

قبيلة مكبرة " كما تقدم، فإن الحاكم إذا ما فشل في صد عدوان أو تعرض لهزيمة أو حدث له خسارة في تجارته، فستصبح سلطته مهددة، وهو ما يبرر تراجع حكم الأسر. إن الحاكم هنا هو "التاجر الأكبر" الذي يتحكم في مسار التجارة، حيث كان التجار "متملقين"، فهم إما عملاء له، أو متحالفين مع أسرته الحاكمة، ويكون المال في النهاية، هو مال الحاكم.

وأما باقي النشاطات الاقتصادية الأخرى، كالزراعة والمهن اليدوية، والفلاحة والصناعات، لم تكن ذات عوائد، حيث لم تكن توفر فائضا مهما. إن الفلاحة في هذا العهد لم تكن طريقا للشراء أو الفنى، بل كانت معاشا للمستضعفين، كما يقرر ابن خلدون في المقدمة (الباب الخامس المتعلق بالمعاش).

4 - من الناحية الفكرية والثقافية:

إن اضطراب هذه الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وترديها، لا يساعد البتة على نمو حركة فكرية ناشطة، لاشك إن منطقة الأندلس والمغرب العربي، بل وكل العالم الإسلامي، شهدت تراجعا ظاهرا في مجال الثقافة والمعارف والعلوم، فلقد تميز هذا العصر بالجمود وانحسار مجال الاهتمام في تكرار واجترار أعمال السلف. فلا العلوم العقلية الشرعية (الحديث، الفقه، الأصول، علم الكلام....) ولا العلوم العقلية، تمكن فيها المسلمون من توسيع البحث فيها، وهذا بسبب انهيار البيئة المناسبة لنشأة المعارف والعلوم، كما تعرضت الفلسفة والمنطق في هذه الجهة من العالم الإسلامي إلى محاربة رسمية شعواء، فكفر من يشتغل بهما، وأحرقت المؤلفات في هذا الميدان وصارت تُهم الكفر، والزيف والزندقة جاهزة، تنتظر كل من تسول له نفسه الخوض في العلوم العقلية بوجه عام... سادت هذا العصر أيضا، حركة وموجة بارزة من التصوف التي انحرفت عن مسارها الحقيقي الممثل في التقشف والزهد، إلى الشعوذة والتدجيل والتضليل، وتمّ للمتصوفة السيطرة على عقول العامة، وساد التفسير الخرافي لكل ظاهرة، وانتشر السحر... ولكن رغم هذا الفضاء اللاعلمي، إلا أن ذلك لم يمنع من وجود

طائفة من المفكرين والعلماء، استطاعت كسر هذا الجمود والتأثير في الأحوال الفكرية والثقافية الراهنة وقتذاك.

وبالإضافة إلى هذه النواحي كلها، لا يمكن إغفال تأثير الضغط المسيحي من طرف الأسبان، فحملاتهم وهجماتهم أنهكت مجتمع الأندلس والمغرب العربي في هذا القرن. كما أن الطاعون الكاسح الجارف، الذي اجتاح المنطقة أثر على كافة مظاهر العمران البشري والاجتماع الإنساني وابن خلدون نفسه ألحق به أثرا بالغا، كما سيؤثر على تكون تجربته العلمية.

لاشك أن ظروف هذا العصر رافد من روافد التجربة الخلدونية، وأحد قطبي عبقرية ابن خلدون. لكن لماذا لا نقف على رجال من مستوى ابن خلدون في هذا العصر، بالرغم من تشابه الأحوال والتجارب؟؟....

إن هذا يجعلنا نؤكد على أن الرافد الآخر، والقطب الثاني في عبقرية هذا الرجل، هو ثراء تجربته الذاتية الشخصية وخبرته العريضة بشؤون السياسة والاجتماع، وهذا ما مكنه من تجسيد هذا التميز، حين اعتزل السياسة ومال إلى الكتابة والتأليف.

هذه الحياة القلقة المتوترة، في هذه الظروف السياسية والقبلية المعقدة، لم تكن قادرة على إفراز رجل من طراز عبد الرحمن بن خلدون، لو لم يكن هناك ما يقف ابن خلدون فوقه، غير هذه الأرضية الهشة، وهذا الواقع العفن المظلم... ولم يكن هذا الذي وقف ابن خلدون فوقه، غير هذه التجربة الحضارية الإسلامية وتراثها العظيم، وأصولها الثابتة القوية. هذا الرجل صاحب هذا العقل الموسوعي، الذي ينغمس في الأحداث، لكنه يبقى وثيق الصلة بالفكر والتراث، يحلم بلحظة الاعتزال لبحث -مجتمعه عن حل جذري، يمتد إلى أعماق الرؤية الحضارية، وهو يدرك بعمق، إمكانات أمته الحضارية في الانبعاث.

لربما كان ابن خلدون، قد يئس من الإصلاح عن طريق السياسة، ولعله وهو يحقق طموحه المشروع، كان يحاول -وهو يتقلب في المناصب- أن يجد مكاناً ملائماً، يستطيع التغيير من خلاله، لكنه وجد هذا الطريق السياسي مغلقاً. ولربما أيضاً، لم يكن يدور في خلد أي شيء من هذا إطلاقاً. وما هو مؤكد لديه، أن هذا الواقع هو حصاد تراكمات متنوعة، سيطرت على المغرب والأندلس، بعد سقوط الموحيدين كما أشرنا، وظهور الدول الوارثة المتطاحنة في المغرب، وسقوط المدن الأندلسية، وانحسار الإسلام في الأندلس..

كان هذا الواقع بأوزاره، يقوم بعملية الشحن الكبيرة، لابن خلدون، وبخاصة أنه عاش هذا الواقع في أسوأ مستوياته، في المستوى السياسي العفن، وربما كان تراث ابن خلدون الموسوعي، ورصيده في الفقه الحضاري الإسلامي، والوعي التاريخي يشدّنه إلى العكوف على تقعيد وسائل الخروج من هذا الواقع... إنه فقيه ومفتي، وهذا يقتضي استيعابه الكبير للمعطيات القرآنية، التي قدمت رصيذاً كبيراً، لأحوال الأمم السابقة، صعوداً وانكساراً. إن العناصر المكونة لثقافته، لا يمكن إغفال نصيبها في فكره وفي إبداعه، لاسيما وأنه ظل موصولاً بها، ولم ينقطع عنها، أو يعلن ثورته عليها.

لقد كانت أكبر المعوقات، التي يواجهها ابن خلدون، تتمثل في ضغط هذا الواقع وكان في حاجة ماسة إلى الفرصة التي يستطيع فيها الخروج من هذا الواقع وتجاوزه، وبالتالي رصده بطريقة منهجية تنظيرية في ضوء رصيده الثقافي، وثوابته الحضارية، ومعطيات الواقع أيضاً.

عندما اعتزل في قلعة بني سلامة، وجدت الأفكار المختزنة فرصتها للبروز، فكان أن ولدت (مقدمة ابن خلدون)، كاملة الأعضاء، واضحة القسمات....

ب - مؤديات التغيير وأسبابه:

أولاً: حتمية التغيير في المدونة الخلدونية:

يؤمن ابن خلدون بالحاجة إلى التغيير كحركة ضرورية تقتضيها طبيعة الحياة الاجتماعية، فالتغيير أمر حتمي. ويعتقد صاحب المقدمة جازماً أن المجتمع الانساني سائر حتماً إلى هذه الحال، والاجتماع الإنساني يستمر ويمر بمراحل مثل الكائن الحي لاسيما الانسان، فالفرد يمر بمراحل منذ الولادة وحتى لحظة الوفاة، والدولة في تصوره لها اعمار كما للأشخاص، لذلك فالتغيير المقصود على هذا المستوى يكتسي الصبغة السياسية تتعلق بالأساس، بحديثه عن ارتباط فكرة ضرورة التغيير بنهاية الدولة، حيث يقول واصفاً ذلك المآل: "وإذا كان الهرم طبيعياً في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني. والهرم من الأمراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها لما أنه طبيعي والأمور الطبيعية لا تتبدل" (ابن خلدون، ع.2000: 229). إن الهرم داء لأدواء له، ولما كانت طبيعته واقعة لا محالة، فإن الدولة آيلة للزوال والانقراض، فهذا "قدر محتوم". ومرحلة الهرم هاته، هي "الطور الخامس" من أطوار الدولة واختلاف أحوالها بهذه الأطوار كما يخبرنا ابن خلدون، هذا الطور، الذي سماه بـ"طور الإسراف والتبذير" الذي يحدد تفاصيله قائلاً: "يكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفاً لما جمع أولوه في سبيل الشهوات، والملاذ والكرم على بطانته وفي مجالسه، واصطناع أخذان السوء وخضراء الدمن، وتقليدهم عظيمات الأمور التي لا يستقلون بحملها، وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم، ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه، ولا يكون لها معه براء، إلى أن تنقرض." (ابن خلدون، ع.2000: 139).

ولما كان الانسان مدنيا بطبعه، فهو لا يستطيع العيش بمعزل عن الآخرين، ودخوله في تلك العلاقة مع غيره بهدف التعاون، هو سر وجود واستمرار وفاعلية الاجتماع الانساني. إن الظاهرة الاجتماعية لها طبيعتها الخاصة بها، وهي خاضعة لقوانين تتحكم فيها.

ربط ابن خلدون دراسة ظواهر الاجتماع الانساني بالتاريخ، لأن هذا الاخير هو الذي يخبرنا عن هذا الاجتماع الانساني وما يعرض له من أحوال، وما يتعرض له من تغير وتبدل، لنستمع إليه وهو يقول: "إعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال" (ابن خلدون، ع. 2000: 27).

إن المجتمع الانساني بحكم هذا المنطق، يتعرض إلى التحول والتغير في بنيته، فينتقل من نمط الى آخر، وهكذا تستمر هذه المسيرة السرمدية، إن هذه التحولات حتمية، وتتناسخ هذه الطبيعة في دورة متجددة مفروضة. وتكون هذه "الدائرية" قانون طبيعي، واذن، يكون التغيير وفق المنظور الخلدوني، عبارة عن ظاهرة اجتماعية، تمر بها المجتمعات والدول، ظاهرة خاضعة لطبائع (قوانين)، العمران البشري، الذي يقتضي "أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال، كما يكون ذلك في الاشخاص والاوقات والامصار، فكذلك يقع في الافاق والاقطار والازمنة والدول" (ابن خلدون، ع. 2000: 22). ولا يتوانى صاحب المقدمة بربط هذا التغيير الذي يتسم بالطبيعة الجبرية، بالعامل السياسي، فطريقة ممارسة الحاكم أو السلطان للسلطة، هي التي تعطي الأولوية في الحصول القهري والقسري للتغيير. ولقد تبين لابن خلدون أن ممارسة الحاكم تترك أثرها على المحكومين، حيث يقول: "السبب الشائع في تبدل الأحوال والعوائد أن كل جيل تابع لعوائد سلطانه، كما يقال في الامثال الشعبية: الناس على دين الملك". (ابن خلدون، ع. 2000: 22).

ولما كان التغيير ظاهرة اجتماعية كما أشرنا، فإن دراسته بكيفية وضعية، كما ندرس الظاهر الطبيعية في العلوم الطبيعية، يكشف عن غلبة الروح

العلمية والنقدية على النظرة المثالية الفلسفية في تأويلات ابن خلدون، فهذه الظاهرة لا تتميز عن غيرها من ظواهر الكون من حيث التناول المنهجي والمعرفي، بهدف التوصل إلى معرفة طبيعتها والقوانين التي تتحكم في حدوثه. إن الظواهر الاجتماعية اذن، موضوع لعلم قائم بذاته، إنه: "علم مستقل بنفسه، فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى. وهذا شأن كل علم من العلوم وضعياً كان أم عقلياً" (ابن خلدون، ع، 29، 2000).

وبالمقارنة مع مستوى تفكير الناس في عصره، يبدو واضحاً شموخ وعظمة الإبداع العلمي الخلدوني في حقلي التاريخ والسوسيولوجيا بوجه خاص، وعلوم الفكر والإنسان بشكل عام. وما حققه من انجازات ومكاسب في حياته العلمية جدير بالمحافظة عليه، ومواصلة البحث فيه، نقداً وتصويباً وتوسيعاً وإبداعاً، وهي وصية بن خلدون نفسه للخلف اللاحقين من العلماء والباحثين، هامساً في آذانهم، قائلاً: "فإن كنت قد استوفيت مسأله، وميزت عن سائر الصنائع أنظاره، وأنحاء، فتوفيق من الله وهداية. وإن فاتني شيء في إحصائه واشتبهت بغيره فللناظر المحقق إصلاحه، ولي الفضل لأنني نهجت له السبيل، وأوضحت له الطريق، والله يهدي بنوره من يشاء" (ابن خلدون، ع، 31: 2000).

إن التأكيد على حتمية ظاهرة التغيير في تنظيرات ابن خلدون، مصدره هذه الروح العلمية كما عبّرنا، فالتغيير عنده لا يأتي من فراغ، وإنما يحدث ويتحقق عندما تتوافر أسبابه والتي سنراها في اللاحق من هذا التحليل - فاعتماده على الاستقراء والتجربة والمعاينة والمقارنة، وإيمانه بمبدأ السببية، كلها صفات موضوعية تراكمت في شخصيته المعرفية، المؤسسة على تجربته الثرية في السياسة والاجتماع، وأيضاً في أسلوبه العلمي والفلسفي. وكما تقدم، فإن الخبرة العريضة لصاحب المقدمة بشؤون الاجتماع البشري، والقوانين التي تتحكم في تغييره مكنه من انتهاز طريق جديد، جعله يتحرر من منطق السابقين له، كالفارابي وابن سينا وغيرهما...

إن اعتماد ابن خلدون على ملاحظاته الاستقرائية، وعلى توظيف التاريخ في دراسة الظواهر الاجتماعية، واقتناعه بأن منطق "الجبر" الذي تسير ضمنه الكثير من تلك الظواهر كظاهرة التغيير، جعله يتوصل إلى القول بفكرة الحتمية التاريخية، والابتعاد عن التفسير الذي يقوم على الشعوذة أو الصدفة، أو الأسطورة واللاعقل فلكل ظاهرة أسباب، وإنكار هذا الأساس السببي، إنما هو إنكار للعلم ذاته، ولما كانت ظاهرة التغيير، قابلة للبحث والتحليل، فهذا يعني أن لها أسبابها.

ثانيا: التغيير: الأسباب الرئيسية الضاغطة:

انتبه ابن خلدون، إذن، إلى أن حدوث التغيير في حياة المجتمعات له أسبابه الموضوعية المتنوعة والمتوزعة على مجالات متباينة من سياسية واقتصادية واجتماعية والذهول عن هذه الأسباب والمؤديات والمحددات، لا يمكن من معرفة حقيقة الظاهرة، ودراستها دراسة بعيدة عن الذاتية، فظاهرة التغيير لا تحدث نفسها أو لا تأتي بعفوية، وإنما هي نتيجة لأسباب خارجة عنها.

ولما كان التغيير يرتكز على هذا الأساس الحتمي، راح ابن خلدون يتأمل في المشهد السياسي تحديدا، فلقد بدا له أن تصرفات وممارسات الحاكم في الدولة التي لها عمرها كعمر الأفراد، هي مسرح ظهور ملامح التغيير كبديل لواقع سياسي متعفن وفاسد. ننظر في الأسباب التي يعرضها ابن خلدون والتي نجدها متكررة، في الكثير من المواطن في "المقدمة":

أ-الظلم:

نقرأ في المقدمة التقرير الخلدوني التالي: "الظلم مؤذن بخراب العمران" (الفصل الثالث والأربعون من الباب الثالث من الكتاب الأول)، كما ونقرأ أيضا تقريره الآخر: "العدل أساس الملك". هذه الأحكام الخلدونية ليست وليدة تمثيلات نظرية خالصة، وإنما استقاهها من الواقع المعاش، ومن مطالعته للأحداث التي

يحفظها التاريخ. ولأن شخصية ابن خلدون الثقافية تتأسس على الثقافة الإسلامية الراضة لكل أشكال الظلم والتسلط، ولاسيما ظلم الحاكم لمحكوميه، تبين لم بما لا يدع أي مجال للشك، أن تفاقم الظلم سيؤدي حتما إلى زعزعة وحدة المجتمع، وسيفضي بخلخلة بنياته، ومن ثم يكون المصير المحتوم هو، التفكك والانحيار. وفي المقابل، كلما كان الحاكم عادلا، ساد المجتمع الاستقرار وانتشر الاطمئنان بين أفراد، وتوافرت أسباب السعادة للجميع، وهذا ما ينبغي أن تقوم عليه السياسة التي يدعو إليها الدين الإسلامي، يقول ابن خلدون: "فالسياسة والمُلك هي كفالة للخلق وخلافة لله في العباد، لتنفيذ أحكامه فيهم، وأحكام الله في خلقه وعباده إنما هي بالخير ومراعاة المصالح كما تشهد به الشرائع، وأحكام البشر، إنما هي من الجهل والشيطان بخلاف قدرة الله سبحانه وقدره" (ابن خلدون، ع. 2000:113).

يكون من الطبيعي، والحال هذه، أن انتشار الظلم مؤذن بخراب الدولة والمجتمع لأنه يؤثر بصورة سلبية، ومن ثم يكون مدعاة للأفراد للمطالبة بالتغيير، بل ستتحول تلك المطالبة إلى عصيان و تمرد، وعندما يبدأ التمرد، يبدأ التغيير حتما. يستنتج ابن خلدون أن مصير المجتمع بيد حكامه، فمتى عملوا على إقامة الحدود وابتعدوا عن الظلم والجور، وساسوا الناس بالعدل والإنصاف، نجحت سياستهم، ودام ملكهم، وإذا لم يكونوا أوفياء لهذه الالتزامات، وتخلوا عن تلك الواجبات، فشلت سياستهم، وضعفت دولتهم، وحلّ الخروج على سلطة الحاكم والثورة عليه من طرف الرعية، ولو بعد مداينة وتزلف كاذب.

ب - الترف:

لا يجد القارئ لمقدمة ابن خلدون أدنى صعوبة في رصد الإشارات والتبیهات الخلدونية، على أن الترف من الأسباب الرئيسية المؤدية إلى ضعف وتدهور أحوال الدولة. فكلما ازداد هذا الترف استشرأ، كان ذلك علامة على

حلول الهرم في تلك الدولة بحيث تكون على أبواب التلاشي والفناء. وحتمًا ستبدأ ملامح التغيير في الظهور.

تحدث ابن خلدون كثيرًا عن "دور الترف في تقوية الملك" من جهة، في تقويضه من جهة ثانية، فطبيعة الحاكم إذا استحكمت وانفردت بالمجد، وحصل الترف، كان ذلك مؤشرا على أن الدولة أقبلت على الهرم (الفصل الثالث عشر، الباب الثالث من الكتاب الأول)، ويعتبر ابن خلدون أن التفنن في الترف، سيؤدي لا محالة إلى إفساد الأخلاق، لاسيما عند الطبقة الحاكمة. إن الترف سبب في زوال الدولة لأن الإفراط في الملذات، والاندفاع المتزايد في تحصيلها، بفعل الثراء الفاحش لأفراد السلطة الحاكمة، يكون مضيعا للكثير من الفضائل، يصور ابن خلدون هذا المشهد قائلا: "فتكثر عوائدهم، ويتجاوزوا ضرورات العيش وخشونته، إلى نوافله ورقته وزينته. ويذهبون إلى اتباع من قبلهم في عوائدهم وأحوالهم، وتصير تلك النوافل عوائد ضرورية في تحصيلها..... ويتفاحرون في ذلك ويفخرون فيه غيرهم من الأمم ويناغي خلفهم في ذلك سلفهم إلى آخر الدولة، وعلى قدر ملكهم يكون حظهم في ذلك، وترفعهم فيه." (ابن خلدون، ع. 2000: 132).

يرسم ابن خلدون لوحة قاتمة للحالة التي تصبح عليها الدولة بعد انغماس أفراد السلطة الحاكمة وحاشيتهم بالترف، وازدياد نفقاتهم واصفا هذه الحال بقوله: "فالفقير يهلك، والمترف يستغرق عطاءه في ترفه، ثم يزداد ذلك في أجيالهم المتأخرة إلى أن يقصر العطاء كله على الترف وعوائده." (ابن خلدون، ع. 133: 2000).

والترف يضاعف من احتمال حدوث التدهور في الحياة الاقتصادية، وتعتبر معاصر تقول إن الترف سيكون طريق مؤديا إلى حدوث أزمة اقتصادية خانقة بسبب الاغراق والإسراف في الملذات، وهذا الوضع ينتج عنه اللجوء إلى استخدام جميع الاساليب الملتوية وغير المشروعة، للحصول على مزيد من الأموال، فتفرض

رسوم جديدة وترفع الجبابة، وتفرض المكوس الخ.... وهذا ضمانا لاستمرارية الدولة وبقاء الطبقة الحاكمة الفاسدة. وهذه الحال سيدفع إلى إثارة الناس وتجعلهم يقبلون على الرفض والاحتجاج الذي ينتهي بهم إلى الخروج عن سلطة الحاكم، وهي البداية الطبيعية والمنطقية للتغيير. إن هذا الوصف الذي أشار إليه ابن خلدون، سوف يؤدي إلى وجود طبقية ظاهرة: طبقة مترفة، وطبقة أخرى تكد من أجل خدمتها. وبطبيعة الحال، ستتسع الفجوة بين الطبقتين، فالفقرير منهم يزداد فقراً حتى يهلك، والغني يزداد غنى وترفا، سيتعاظم اليأس والقنوط، بل ويزداد الحقد والكراهية عند الطبقات الفقيرة المحرومة، والمقصية تجاه طبقة المترفين، وبسبب هذا الغياب البارز للعدل والمساواة ستكون الجماهير ذات قابلية للانتفاض، فتعمل على توفير وتهيئة الاجواء والظروف النفسية الملائمة لإحداث التغيير.

3 - في سبيل خلدونية عربية معاصرة:

إن دراسة الفكر الخلدوني بما يتضمنه من العلمية والعقلانية، تؤكد الحاجة إلى امكانية ومشروعية الدعوة إلى "ترهينه" بغية الاستفادة منه والافتداء بأساليبه في التشخيص واقتراح البدائل والحلول، مع التأكيد على أن لكل عصر خصوصيته، ومحدداته المعرفية والفكرية والعلمية الخاصة به.

-استرشادا بفكر ابن خلدون الوارد في المقدمة، يمكننا الخروج بملاحظات عامة، نراها ضرورية لكل "مقال" ممكن حول ما يمكن تسميته هنا "ابن خلدون والمعاصرة" لاسيما على المستوى السياسي. (مساهمة في ما يجب إنجازه من الخلدونية):

أولاً: يحتاج العرب إلى تغيير نظرتهم للتاريخ، ومنه تاريخهم، بطبيعة الحال ليعرفوا كيف يجب أن يتعاملوا مع واقع العالم الذي هو حاضر التاريخ البشري. فالمسألة ليست مسألة تاريخ وإنما مسألة حاضر، ذلك أننا "نمتلك الماضي، ونمتلك الحوافز لتسخيره لخدمة حاضرنا ومستقبلنا. وهذا مهم جداً، ولكننا نفتقد شيئاً

يستحيل بدونه أن نخدم حاضرننا ونروض مستقبلنا، وإن تحقق تلك الاستفادة من ماضيا بالتالي...وذلك الشيء الذي نفتقده، هو الحاضر الذي يستحيل دونه، وكما سبق أن رأينا، المرور إلى الماضي لاستلهامه، أو إلى المستقبل لاستجلائه، ذلك الحاضر الذي نعلم جميعا أنه حاضر ليس من صنعنا، بل من صنع غيرنا الذين أقاموه في غيابنا...أو في تغييرنا من على مسرح الحياة، وعلى حسابنا في كثير من الأحيان" (حمانة، ب. 1988: 245).

لقد تأسس الوعي العربي الحديث والمعاصر في الأعم الغالب على نظرية رومانسية للتاريخ لا تهتم إلا بالبطولات والأمجاد وتجنح في أحيان كثيرة إلى الأسطورة والخرافة مما يشيع فيه وعيا مزيفا ومضللا بواقع التاريخ الذي تتحرك قوانينه كما تتحرك قوانين واقع العالم المعاصر.

ثانيا: أهمية الوعي التاريخي في تأسيس الوعي الصحيح لأية أمة، خاصة إذا كانت تعاني ما يعانيه العرب في حاضرههم ويمكن إن تمدهم بعناصر الرؤية الصحيحة لما يمرون به، فالوعي بحقيقة التاريخ شرط لا بد منه لفهم واقع هذا العالم والتعامل معه بالطريقة العملية الصحيحة لا بالنظرة الشعرية أو الرومانسية التي لها مكانها في حياة الأفراد والجماعات، ولكن ليس في مجال التعامل مع واقع العالم، لأن مثل هذه النظرة إن بقيت هي المسيطرة على ردود فعل الأمة، فإنها كارثية.وليست صدفة أن ابن خلدون عندما شرح علمه الجديد في العمران البشري والاجتماع الإنساني "الذي اثر عليه البحث وأدى إلي الغوص" حسب قوله حرص على التنبيه أنه "ليس من علم الخطابة" ! لعلمه بغلبة هذا الجانب البلاغي في التكوين العربي على الجانب العقلي. هكذا فوعي التاريخ، علميا، مقدمة لفهم العالم المعاصر موضوعيا. ولا يمكن لأية سياسة أو حركة أو أمة تعيش أوهاما أو رومانسيات منسوبة للتاريخ أن تواجه العالم وتتمكن من تغييره لصالحها..وفي اعتقادي، يبقى ابن خلدون أبرز بل أول مؤرخ عربي دعا إلى ضرورة التنبه للعوامل الموضوعية في فهم التاريخ.

ثالثا: إن ابن خلدون يحذر من دورة انهيار تاريخي شبه حتمي للأنظمة السياسية العربية التي تبدأ بالحزم والتكشف، ثم تنتهي أجيالها التالية تدريجا، إلى الترف المهلك بما يفقدها فضيلة المدافعة والممانعة عن بقائها ووجودها.. هذه الدورات التاريخية المهلكة هل تستطيع أنظمتنا السياسية الراهنة كسر حلقتها والخروج منها، مع شعوبها، إلى آفاق تاريخية جديدة؟ إن الجواب ليس سهلا أمام هذا القانون الخلدوني الذي قام على شواهد تاريخية متواترة ونلمسه ونراه، في الكثير من أنظمتنا السياسية الراهنة. وربما ما يتخطى زمن ابن خلدون، هنا، يمكن أن يتمثل في حركة إصلاح جريء وجذري وتجديد شامل للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية. وكما أسلفنا من السهل قول ذلك. ولكن من الصعب جدا - بحكم المعطيات - الفعل والتففيذ والإنجاز. ولكن لا بد مما ليس منه بدّ إن امتلكت هذه الأنظمة السياسية العربية والإسلامية إرادة البقاء.. البقاء المتماشي مع رياح التغيير وحركة التاريخ، وليس البقاء الاستبدادي الأرعن. إن ابن خلدون في تشخيصه المذهل لواقع نهاية مثل هذه الأنظمة في ماضينا يتحدث بإلحاح عن خطر "الترف المؤذن بخراب العمران" إنه الحالة الاستهلاكية المتسببة والمنفلتة والتي تعيشها نخب هذه الأنظمة في لامبالاة قاتلة تتجاهل سرا وعلانية، الأخطار المحدقة. وربما لو كان ابن خلدون حيا ورأى التهالك المفجع اليوم على أرباح الأسهم خاصة في تلك الدول المنتجة والمصدرة للبترول، بما تعكسه من ذهنية كسولة تريد الربح بلا إنتاج، لصرخ قائلا: انظروا.. هذا هو الترف المؤذن بخراب العمران..

رابعا: أدرك ابن خلدون، أهمية مراعاة قوانين التاريخ والاجتماع في حركات التغيير التي لا بد في نظره أن تأخذ بأسباب القوة المجتمعية في المواجهة، وألا تندفع إلى العمل الانتحاري المهلك للنفس دون رؤية، ودون عقل سياسي. لنتأمل هذا النص الخلدوني: "ومن هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء، فإن كثيرا من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه والأمر بالمعروف رجاء الثواب عليه من الله، فيكثر أتباعهم والمتمثلون بهم من الغوغاء

والدهماء ويعرضون أنفسهم في ذلك للمهالك، وأكثرهم يهلكون في هذا السبيل، مأزورين غير مأجورين لأن الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم.. وأحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها إلا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر.. وهكذا كان حال الأنبياء في دعوتهم إلى الله وهم المؤيدون من الله بالكون كله لو شاء، لكنه إنما أجرى الأمور على مستقر العادة.. "(ابن خلدون، ع. 2000: 126). أورد ابن خلدون هذا النص في "المقدمة" قبل أكثر من ستة قرون، ولكن، أليس فيه ما يصف الحالات الانتحارية في الراهن العربي والإسلامي بدقة متناهية!....

وبكلمة ختامية موجزة، نستطيع القول: تبقى اليوم "مقدمة" ابن خلدون ليست مجرد مقدمة في التاريخ وإنما "مقدمة" لا غنى عنها، لتأسيس وعي عربي جديد قادر على التعامل مع العالم بموضوعية فاعلة، إنها "مقدمة" لا تنتأج "تنتظر براعة القارئ، لأن" الكلمة الأخيرة في البحوث والدراسات، لا يمكن أن تقال أبداً "فهمي، ج. 1988: 11).

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن خلدون، عبد الرحمن. (2000). المقدمة، ط1، بيروت: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية.
- الجابري، محمد عابد. (1994). فكر ابن خلدون: العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، ط6. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- فهمي، جدمان. (1988). أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ط3. الأردن: دار الشروق.
- حمادة، البخاري. (1988). "من أجل فلسفة عربية للتاريخ"، ضمن الكتاب الجماعي "الفلسفة العربية المعاصرة، مواقف ودراسات"، ط1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- سمير، أمين. (1993). "بعد حرب الخليج، الهيمنة الأمريكية إلى أين؟". مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت، العدد: 170.

- قنان، محمد. (1994). "نظام عالمي جديد أم سيطرة عالمية جديدة". مجلة المستقبل العربي. مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت. العدد 180.
- بركات، حليم. (1993). "المجتمع العربي المعاصر، بحث استطلاعي اجتماعي"، نقلا عن: ثناء فؤاد عبد الله، "ممكّنات التغيير في المجتمع العربي". مجلة المستقبل العربي. مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت، العدد 176.

80.....82